العلماء و الأُغيلمة

عبد الله بن سليمان العبدالله (ذو المعالي)

<TD< tr/>

من المعروف لدى عقلاء طلاب العلم و نبهائهم أن العلم متشعب متفرِّع . و هذا عام في كل فن من فنون العلم .
و ذاك التشعب و التفريع نعمة كبرى إذا كان من باب التفريع المعوَّل في على أصل العلم .
و هما متضمنان خلافاً في المسائل التي هي تفريع على الأصل .
و الخلاف قسمان :
الأول : خلاف تضاد .
الثاني : خلاف تنوع .

و الأصل في علماء الإسلام _ عموماً _ أن الخلاف فيهم هو من النوع الثاني .
و أما النوع الأول فقليل القائل به ، و لم يقل و لن يقول به إلا من تلبس بهوى ، و شهوة نفس .
هذا أصل سار عليه علماء السنة _ خاصة _ و سائر علماء الدين . لكن لما ضاق الأفق في بعض الناس _المنتسبين للعلم _ بذاك النهج ، و قد تلبَّسَ _ مسبقاً _ بـ (الامبراطورية) النفسية ، ضيق المسائل الخلافية ، و جعلها أمراً مجمعاً عليه ، ناسفاً بذلك كل قولٍ و كتاب و مذهب اعتمد القول الذي خالف ما حققه بعض (النكرات) .
فكان من ذلك أن أطلق للسان العنان ، و شهر صارم قَلَمِه ، و مُظْهِراً سطرَ كتابه على كل من خالف قوله (المُحقَّق) .
و أصبحت القاعدة الأساس عنده هي القاعدة البوشية [من لم يكن معي فهو ضدي] .
فحجَّر بجهله الواسع ، و ضيَّق الشاسع ، و تلك بلية (الأقزام) ، و آفة (الذبابيين) .
فإذا ما قال (عالم) قولاًله فيه (إمام) سابقٌ له بالقول بهذا الرأي إلا و انبرى له من (الأقزام) من هدَّ كيانه ، و نسف بنيانه .
و السبب الدافع لذاك (النسف) هو مخالفته ما تقرَّر عند (الطِّوال) الذين تبنوا كفالة (غلمان) الكتاتيب .
و إن كان في الأمر إنصافاً ، و سعياً للحق لكان الهجوم على القائل به أولاًلا من قاله مقلِّداً .
بغضِّ النظر عن كون نهج أولئك (الأقزام) خالفوا الكتاب في : (الإنصاف) و (العدل) و (اتباع الحسن من القول) و (الحكمة في الطرح) .

و ثمة سؤالات تتبادر إلى ذهن طالب الحق و هي :
هل المُعْتَبَرُ في العلم ما حققه المعاصرون ؟
و هل الخلاف سُدَّ بابه حين تبنى أحدٌ قولاًمن الأقوال ؟
و هل الخلاف (التنوعي) يكون خلافاً (تضادياً) ؟

و هل (الهجران) و (التضليل) و (التبديع) يكون في المسائل الفرعية ؟
و هل مخالفة عالم لرأي آخر تُعَدُّ مسوغةً لـ (التضليل) و (التفسيق) ؟
أسئلة أطرحها على كل (قزم) ناطح (طويلاً) .
الكل يرى بين فينات عدَّةٍ أطروحات ردودية على كبارٍ من المشتغلين بالعلم في مسائل فرعية الخلاف فيها سائغ .
و لِيُلْحَظْ أن الردَّ على من لم يسلك مسالك (الأقطاب) المبجلين عند بعض الناس .

الأمر في الخلاف (التنوعي) واسع ، فلابد من مراعاته مراعاةً تليق به ، يُحتَفى فيها بالمُخالف .

و العجبُ أن أصاب بعض العلماء خوفٌ من إبداء أقوالٍ خلافية بين طلاب العلم بسبب التصرفات (الصبيانية) التي يقوم بها بعض (المتعالمين) .
و لو كان الرد من (فاقِهٍ) و (نابهٍ) لكان الخطب هيِّناً ، لكن و الأمر خرج من (غلمان) الكتاتيب ، و ذوي الفهاهة ، و أرباب السفاهة ؛ فما نقول إلا (الله المستعان) .
بل لو كان الرد و النقض من (الغلمان) محفوفاً بـ (الإنصاف) و (العدل) و ملازماً (الأدب) و (الخلق) مع (المخالف) لكان مقبولاً.
و لكن تخلَّفَت كل تلك المُؤملات فانبرى (الغلام) قاتلاً(السيد) ، و استطال (الوضيع) ناطحاً مقام (الشريف) .
فلا الأسد أصبح سيد الغاب ، و لا حاكى مشيَ الطاووس الغرابُ .